

# الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

## في ذكره الثانية

### للأستاذ عبد الرحمن الغريب

للمرة الثانية تحيي الجزائر ذكرى وفاة الاستاذ الامام محمد البشير الابراهيمي، والحديث عن الابراهيمي - الذي وهبه الله من ثراء اللغة وبصره بتصريف الفاظها مالم يوت لغيره - حديث لا ينتهي ، فقد كان كاتباً قديراً وخطيباً مصقعا، وقصاصاً لبقاً وشاعراً مقلقاً ، ولعل الشاعر الذي قال :

ان يجمع العالم في واحد

وليس على الله بمستنكر

كان يعني مثال هذا الرجل .

( ما دام الاسلام دينا لسكان الجزائر والعربية لغة لهم فان الوجود الفرنسي سيكون معرضا للخطر والزوال ) . ويرى ان استئصال هذا الورم الخبيث لا يتحقق الا بنشر الاسلام الصحيح بين افراد الشعب ونشر العربية بين ابنائه .

انها نفس الخطة التي سار عليها سلفه ابن باديس .

ومن المؤسف ان الجزائر كانت في ذلك العهد لا تملك كثيرا من الرجال امثال ابن باديس والابراهيمي ، فلو قيض الله لها آخرين من امثال هذين الرجلين لانقطع الابراهيمي الى التأليف وترك لنا ثروة فكرية من المؤلفات القيمة التي كانت تسجل

عمل الابراهيمي طول حياته في سبيل بعث الجزائر من سباتها ، وجالد وجاهد في سبيل نشر العربية والاسلام ، في بلد اناخ الاستعمار عليه بكلكله ، ولم يحجم عن مصارعة الاستعمار رغم ما في ذلك الصراع من تفاوت القوى .

كان هم الابراهيمي بعد وفاة الاستاذ الامام عبد الحميد بن باديس واسناد رئاسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين اليه ، ادارة دفة سفينة الجمعية رغم العواصف والزوايع ، وتمكن بحنكته واناته ان يشيد من المدارس الحرة العدد الكثير ، وكان يتذكر دائما قول الكردينال المسيحي « لافيجري » :

الذين عاشرناه ان نسجل مآثر الرجل الذي بنى وشيد ومهد وعبد الطريق لمن بعده .

ففي حفل حاشد يقف مرشدا الى طريق الرشاد ، وينادي مدويا بصوته الجهر فيقول :  
ايها السادة :

ان هذا العالم الانساني لم يشهد منذ يراه الله على ظهرها افسادا عاما وشرا مستحكما وطاعونا اخلاقيا جارما الامرتين - على كثرة ما شهد من الطواعين الجسمانية - .

اما احدهما فكانت قبل الاسلام يوم كان العالم الانساني كله فريسة للآثرة والاستبساد والاستبساد والفساد والافساد ، ويوم كان بحرا متلاطم الامواج بالردائل ويوم كان العقل عبدا لكهوى ، والفكر عبدا للوهم ، والحقيقة امة للخرافة ، والفضيلة رهينة الاعتدال والاختلال ، ويوم كان هذا العالم كله خاضعا لشهوات مضطربة وحيوانية عارمة ووثنية متغلغلة .

ولكن الله جلت قدرته تداركه - وبه رمق - بالاسلام دين السلام وكتابه القرآن كتاب العدل والاحسان وبرسوله الامين يحمل منه للعالم المشخ الدواء الشافي ويمسح على مواقع الالم منه بالكف الكافي ، فما هي الا فترة حتى اصبح العالم يمرح في السعادة ويسبح في النعيم وينعم بالاخوة والتسامح ويتقلب في اعطاف العدل .

التاريخ الادبي لهذه البلاد .  
قضى الابراهيمي قرابة الثلاثين سنة في وضع اسس بناء صرح المعرفة بهذه البلاد ، فترك جيلا من الجزائريين يتكلم العربية وينشرها في المدارس بعدما كادت الفرنسية تقضي على البقية الباقية من اثر العربية .

ولكن الابراهيمي الصديق الوفي لابن باديس يعتبر ان جنود النهضة العلمية والسنتها الحادة واقلامها الكاتبة وحاملي الويتها هم تلامذة ابن باديس . وهو يرى : « ان داره في الاصلاح السديني والاجتماعي والسياسي هي الدستور القائم بين العلماء والمفكرين والسياسيين ، وهي المنار التي يهتدى بها العاملون ، وان بناءه في الوطنية الاسلامية هو البناء الذي لا يتداعى ولا ينهار » .  
وحين يكتب ليسجل مجد رفيقه ابن باديس يقول :

« وحسبه من المجد التاريخي انه احيا امة تعاقبت عليها الاحداث والغير ، وديننا لايسته المحدثات والبدع ، ولسانا اكلته الرطانات ، وتاريخنا غطى عليه النسيان ، ومجدا اضاعه ورثة السوء ، وفضائل قتلها رذائل الغرب » .

فالابراهيمي - شأن كل رجل عظيم - لا يرى غضاضة في وضع اكليل الغار على مفرق عبد الحميد بن باديس ، ولا يرى بأسا في تسجيل المجد لرفيقه في الكفاح . فقد كان شعاره بلوغ الهدف ، وتحقيق الامنية .. الا ان هذا لا يعفينا نحن

**كناهما ضرر وكناهما شرا .**  
 ان رحمة الله آتية من السماء ،  
 وقد جاءت اديان السماء فعلمت  
 الفقير كيف يرضى ويصبر ، وعلمت  
 الغني كيف يحسن ويرحم ، فلماذا  
 لا يرجع بنو الارض الى حكم السماء  
 ورحمته ؟ ولماذا لا يلتمسون مثل  
 الاحسان الكاملة في القرآن .

هذا داء العالم البشري فآين  
 دواؤه ؟ وهذا مرضه المضال فآين  
 طبيبه ؟ وهل يتداركه الله بلفظه  
 فيهدي البشر الى اتباع ما جاء به  
 القرآن من تسامح وتعاون على الخير ؟  
 فيا ايها المشفقون على العالم  
 الانساني ان يأكل بعضه بعضا .  
 انصحوه بالرجوع الى الاسلام وكتابه  
 يجد فيهما ظلال السلم وبرد الرحمة  
 وعز القناعة وشرف التقوى ويتمتع  
 من اكل ذلك بنعمة السلام .

**ويا ايها المسلمون انتم اطباء هذه  
 المضلات ولكنكم جاهلون . وانتم  
 الحكم المرضي في هذه المشكلات  
 ولكنكم غائبون ، ولو كنتم حاضرين  
 خضوع سلفكم لمشاهد العالم  
 ومنازعاته العامة لوقفتم - كما  
 وقفوا - بعقائدهم وسطا بين التناهي  
 والتقصير ، واذا لرفتم عن العالم  
 هذه الاضرار والانحلال وفزتم من  
 بين حكماؤه وعلمائه بتحقيق الاشكال .**

ان العالم في عذاب ، وعندكم  
 كنز الرحمة ، وان العالم في احتراب ،  
 وعندكم منبع السلم ، وان العالم  
 في غمة من الشك ، وعندكم مشرق  
 اليقين ، فهل يجمل بكم ان تعطلوه

واما الثانية ففي عهدكم هذا .  
 ولو انكم تستشهدون التاريخ :  
 اية المرتين كانت اشر واشر ، وادهى  
 وامر ، لقال لكم غير متجانف لائم :  
 ان شر المرتين آخرتهما ، ولساق لكم  
 من الحجج مالا تستطيعون له دفعا ،  
 فان الشر الاول كان من بعض دواعيه  
 الجهل ، اما هذا الشر فكل دواعيه  
 العلم ، وقد كان الشر يعرض على  
 الناس باسمه وفي ثوبه الحقيقي  
 فاصبح يعرض عليهم باسم الخير وفي  
 ثوب الخير ، وقد كان العالم متباعد  
 الاجزاء متقطع الاوصال ، وفي تباعد  
 الاجزاء تقييل من بواعث الشر ،  
 فاصبح العالم مزدحما حتى ليكاد  
 يلتحم ، ومن ازدحامه والتحامه  
 نشأت معضلته الاجتماعية الكبرى  
 وهي مشكلة الاغنياء والفقراء التي  
 لم يفلح في حلها علم العلماء ولا حكمة  
 الحكماء ولا قوة الاقوياء ولا دهاء  
 الدهاة ، والتي تفاقم خطبها واضطرم  
 لهيبتها حتى اصبح بنو آدم المتآخون  
 في نسبة فريقين مضطفين يتربص  
 كل فريق بأخيه دائرة السوء ،  
 ويا ويل هذه الارض اذا انفجرت  
 الاحقاد بين ابنائها .

وقد عرفنا التاريخ ان اصل البلاء  
 بين البشر جاء من عصبياتهم المختلفة .  
 وكان مما يهون تلك العصبية انها  
 محدودة وانها تعالج بعصبية اخرى ،  
 فيخف ضررها وتتلاشى قوتها ،  
 ولكن مشكلة اليوم ان تلك العصبية  
 التي كانت تنفع حيناً وتضر احيانا  
 ذابت كلها في عصبيتين جامحتين

ماضياً عبقرياً حسدتنا عليه الامم  
التوالي بعد ان جرضت به الامم  
الخوالي . فمن مصلحتنا وحدنا ان  
نحيي ذكرياته في نفوسنا وان نستمد  
منه قوة لارواحنا وان نربي ناشئتنا  
على احتذاء مثله وعبقرياته :

**وينظر الى الجزائر الفنية فيجد  
معلم سكانها من الشباب - وهو  
الخير بالقوة الكامنة في نفوس  
الشباب - فيولي الشبيبة عنايته ،  
ويعمل على اذكاء الروح الاسلامية  
فيها . واسمعوا اليه يخاطبهم ،  
لقد كتب سلسلة من المقالات تحث  
عنوان ( الشباب المسلم الجزائري  
كما تمثله لي الخواطر ) :**

أتمثله متسامياً لمعالي الحياة عرييد  
الشباب في طلبها طاغيا عن القيود  
العائقة دونها جامحاً عن الاعنة الكابحة  
في ميدانها متقصد العزمات ، تكاد  
تحتدم جوانبه من ذكاء القلب وشهامة  
الفؤاد ونشاط الجوارح .

أتمثله مقداماً على العظام في غير  
تهور ، محجماً عن الصفائر في غير  
جبن ، مقدراً موقع الرجل قبل  
الخطو ، جاعلاً اول الفكر آخر  
العمل .

أتمثله واسع الوجود لا تقف امامه  
الحدود ، يرى كل عربي أخاً له أخوة  
الدم ، وكل مسلم أخاً له أخوة  
الدين ، وكل بشر أخاً له أخوة  
الانسانية ، ثم يعطي لكل أخوة حقها  
فضلاً او عدلاً .

أتمثله حلف عمل لا حليف بطالة ،  
وحلس معمل لا حلس مقهى ، وبطل

فلا تنتفعوا به ولا تنفعوا .؟

ويهيب بالمسلمين عموماً  
والجزائريين خصوصاً أن يعملوا على  
احياء التراث الاصيل وبعث الامجاد  
التاريخية ، ويرى ان غفلتهم عن هذه  
الامجاد هي التي ازهقت روح التآسي  
في الامم الاسلامية فافقرتها من  
الرجال وجعلت التاريخ الحديث  
خلوا من المثل العليا . فيقول :

« فلما جهل التاريخ وانقطعت  
الطلائق الواصلة بين عصوره ضعف  
روح التآسي ثم تلاشت وصرنا الى  
هذا الفقر الشائن في المثل ، وهذا  
الخواء المزري في التاريخ .

وقد زادتنا ااصاليل الفاشيين  
امعانا في الغفلة واغراقا في الركود ،  
ففقهاء هذه العصور الجرداء يعدون  
التاريخ علماً لا ينفع ، وجهالة لاتضر ،  
والاجانب يعبروننا باننا امة نعيش  
في الماضي ويفشون سفهاءنا في  
معرض التنصح بامثال هذه الكلمات  
لياً بالسنتهم وتزهيدا في هذا الماضي  
زيادة عن زهدنا فيه ، وهم يعلمون  
اننا نعيش بلا حاضر ، ويوجدون  
خيفة من ان يلم بنا طيف من ذلك  
الماضي الزاهر فتبني عليه حاضرا من  
جنسه اكمل منه .

الا انهم - من افكهم - ليقولون :  
دعوا ماضيكم ، فهل تركوا هم  
ماضيهم ؟ اننا نراهم احرص الناس  
على الاعتداد به والاستعداد منه  
والامتداد معه الى عصور الخرافات  
والاساطير .

وما لنا وللغاش والناصح ! ان لنا

اعمال لا يفتخروا بالقول ، ومرتاب  
حقيقة لا رائد خيال .

اتمثلة برا بالبداوة التي اخرجت  
من اجدها ابطلا مزورا عن الحضارة  
التي ( رمته بقشورها ) فارخت  
اعصابه واتثت شمائله وخنثت طباعه  
وقيدته بخيوط الوهم ومجت في نبعه  
الظاهر السموم واذهبت منه ما يذهب  
القفس من الاسد من باس وصوله .

اتمثلة معتدل المزاج الخلقي بين  
الميوعة والجمود ، وبين النسك  
والفتك ، تتسع نفسه للعقيق وعمرو  
ابن ابي عتيق فيصبو ولا يكبو ، كما  
تتسع للحرم وناسكيه فيصفو ولا  
يهفو ، وتهزه مفاخرات الفرزدق في  
المربد ، كما تهزه مواعظ الحسن في  
العبد .

اتمثلة واسع الامال الى حد  
الخيال ، ولكنه يحزبها بالاعمال  
الى حد الكمال ، فان شغف بحب  
وطنه شغف المشرك بوثنه عذره  
الناس في التخيل لاذكاء الحب ، ولم  
يعدروه فيه لتغطية الحقيقة .

اتمثلة مصاولا لخصمه بالحجاج  
والاقناع ، لا باللجاج والاقذاع ،  
مرها لاعدائه بالاعمال لا بالقول .

اتمثلة بانبا للوطنية على خمس .  
كما بني الدين قبلها على خمس ،  
السياس آفة الشباب . والياس  
مفسدة اليأس ، والامال لا تدرك  
بغير الاعمال ، والخيال اوله لذة  
وآخره خيال ، والايوطان لا تباع الا  
بتابع خطوات الشيطان .

وحيث تشتد معركة الجمعية مع

الاستعمار ، يدفع هذا باذنبه  
ليضلوا ويدجلوا على الناس ،  
زاعمين ان السياسة لا صلة لها  
بالدين ، وان من واجب رجل الدين  
ان يتفرغ للأخرة ويترك الدنيا  
لاصحابها . كان الدين ضد الدنيا .  
وينزل الابراهيمى للصراع ليقول  
للاستعمار :

« ولتعلم - آخر ما تعلم - ان زمنا  
كنت تسلط فيه المسلم على المسلم  
ليقتله في سبيلك ، قد انقضى وانه  
لا يعود .

ولكن ما قولك - ايها الاستعمار -  
في تدخلك في ديننا وابتلاعك لاقواتنا  
واحتكارك التصرف في وظائف ديننا  
وتحكمتك في شعائرتنا وتسلطك على  
قضائنا وامتهانك للفتنا ؟

ما قولك في كل ذلك ؟ أهو من  
الدين أم من السياسة ؟ وكيف تبيع  
لنفسك التدخل فيما لا يعنيك من  
شؤون ديننا ثم تحرم علينا التدخل  
فيما يعنينا من شؤون دنيانا .

وهبنا واياك فريقين فريق اخضع  
الدين للسياسة ظلما ، وفريق ادخل  
السياسة في الدين متظلما ، فهل  
يستويان ؟ اننا اذا حاكمناك الى الحق  
غلبناك ، واذا حاكمتنا الى القوة  
غلبتنا ، ولكننا قوم ندين بان العاقبة  
للحق لا للقوة » .

وحيث ارادت فرنسا توسيع دجلها  
السياسي على الصعيد العالمي .  
وابتكرت احبولتها « القانون الاساسي  
للجزائر » لتوهم العالم وانها اعطت  
للجزائريين حقوقهم . وجمعت من

على التعليم ، وشرح ببلافته دور العربية في احياء الروح الاسلامية ، ويحقق لهم أن في المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا ، وللعربية على الامة حقان اكيدان : كل منهما يقتضي وجوب تعليمها فكيف اذا اجتمعا ؟ : حق من حيث انها لفة دين الامة بحكم ان الامة مسلمة ، وحق انها لفة جنسها بحكم ان الامة عربية الجنس .

ولا يترك الابراهيمى مناسبة تمر دون ان يسجل لها بقلمه ما تستحقه من تسجيل . فهذا الزامن من ماي ١٩٤٥ الذي تحتفل الجزائر بذكره الائمة كل عام . ذكرى المذبحة الرهيبة التي ذهبت ضحيتها ٥٠ الف جزائري من رجال ونساء واطفال ... يقول عنها : « يوم مظلم الجوانب بالظلم مطرز الحواشي بالدماء الطلولة ، مقشع الارض من بطش الاقوياء ، متهيج السماء بارواح الشهداء ، خلعت شمسها طبيعتها فلا حياة ولا نور ، وخرج شهره عن طاعة الربيع فلا ثمر ولا نور ، وغابت حقيقته عند الاقلام فلا تصوير ولا تدوين .

يوم ليس بالغريب عن (رزانمة) الاستعمار الافرنسي بهذا الوطن ، فكم له من ايام مثله ، ولكن الغريب فيه ان يجعل - عن قصد - ختاماً لكتاب الحرب ، ممن انهكتهم الحرب على من قاسمهم لأواءها ، واعانهم على احراز النصر فيها ، ولو كان هذا اليوم في اوائل الحرب لوجدنا من يقول : انه تجربة ، كما يجرب

بين الجزائريين افرادا سمتهم نوابا . وهم في الحقيقة نواب ..

« واذلاه ! ابعد البراهين اللائحة كفلق الصبح على حق هذه الامة في السياسة وفي الحياة . وعلى استحقاقها لجميع الحقوق في السياسة والحياة ، تعامل بالدون ، وتحمل على خطة الهون .

ايها المترددون ، على قصر « البوربون » ، انه لاظاره كاليأس وقد ائسوكم فكانهم طردوكم فارجموا ارجعوا وتداعوا الى الاتحاد على الحق الواضح بالمنطق المعقول ، فان القوم قد اتحدوا على هضمكم بالمنطق المسلح ، ارجعوا واجتمعوا واجمعوا الامتقي مؤتمر واحدواشرحوا لها الحقيقة ودعوا لها الكلمة الاخيرة في تحديد الموقف وتقرير المستقبل . لا اندماج الا لبعضكم في بعضكم ولا اتحاد الا لاجرائكم الطبيعية بعضها مع بعض » .

ويخاطب الامة ليستفز همتها حتى تكثر من انشاء المدارس العربية الحرة ، فيقول :

« ايها الامة . قلنا لك ان العلم هو عمارة الوطن واساس الوطنية ومنشئ الوطنيين ، وارشدناك الى ان العلم بالتعلم ، وحشناك على تكثير مدارسها ، وما غششناك في نصيحة ، ولا دليناك بقرور ، ولا استهويناك بخيال ، في حين تالب عليك الفاشون والفارون والاستهويون .

لك علينا البناء والتشييد ، ولنا عليك العون والتأييد » .

ويكرس خطبه ومقالاته للحث

الجبان القوي سيفه في الضعيف  
الاعزل .

لك الويل أيها الاستعمار ، أهذا  
جزء من استنجدته في ساعة العسرة  
فأنجذك . واستصرخته حين أيقنت  
بالعدم فأوجدك ؟ أهذا جزء من كان  
يسهر وأهلك بنام ، ويجوع أهله  
وأهلك بطان ؟ ويثبت التي تطير فيها  
نفوس ابنائك شعاعا ؟ أشرفك أن  
ينقلب الجزائري الى أهله من ميدان  
القتال بعد أن شاركك في النصر لا في  
الغنيمة - فيجد الأب قتيلا والأم  
مجنونة من الفزع والدار مهدومة  
او محرقة ، والغلة متلقة ، والعرض  
منتهكا ، والمال منهبا مقسما ،  
والصغار هائمين ؟ » .

والإبراهيمي لا يعرف المؤاربة  
واللف والدوران . فهو لا يستجدي  
الشمسية ولا يعمل ككثير من  
الناس - على استدرا عطف  
الجمهور ، أنه يفضل عرض الحقيقة  
عارية ، دون لف او دوران ، فيقول  
في تهنة العيد :

« يا قوم ما أخلف العيد ، وما  
أخلفت من ربكم المواعيد ، ولكنكم  
أخلفت ، وأسلفتم البشر فجوزيتهم  
بما أسلفتم ( وعد الله الذين آمنوا  
منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم  
في الأرض كما استخلف الذين من  
قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي  
ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد  
خوفهم أمنا ) .

فلو أنكم آمنتم بالله حق الإيمان ،  
وعلمتم الصالحات التي جاء بها  
القرآن ، ومنها جمع الكلمة واعداد

القوة ، ومحو التنازع بينكم ، لانجز  
الله لكم وعده ، وجعلكم خلائف الأرض  
ولكنكم تنازعتم ففشلتم وذهبت  
ريحكم ، وما ظلمكم الله ولكن ظلمتم  
انفسكم .

أيها المسلمون : عيدكم مبارك  
إذا أردتم ، سعيد إذا استعددتهم ،  
لا تظنوا أن الدعاء وحده يرد الاعتداء .  
ان مادة دعا يدعو لا تنسخ مادة  
عدا يدعو ، وإنما تنسخها أعد يدعو  
واستعد استعداد يستعد ، فاعدوا  
واستعدوا تزهروا أعيادكم ، وتظهر  
امجادكم » .

ويحذر الكتاب من التورط  
ويدعوهم الى التبصر في الكلام إذ  
يرى ان سكوت العاقل مختارا في  
وقت يحس السكوت فيه خير من  
ان ينطق مختارا في وقت لا يحس  
الكلام فيه ويطلب الى حملة الأقلام  
تقبل كل شيء في سبيل المبدأ فيقول  
لهم : « فلتأتمهم المصائب من كل  
صوب ، ولتنزل عليهم الضربات من  
كل سماء ، وليخرجوا من كل شيء  
الا من القلم واللسان . . ان يبع  
القلم واللسان اقبح من بيع الجندي  
لسلحه » .

واستمر الإبراهيمي يدعو ويرشد  
ويوجه حتى نزل به المرض الذي  
أقعده بعد استفحاله . وفارق الدنيا  
وقد ترك في الجزائر أثرا خالسا  
ستذكره الأجيال على مر العصور  
والسنين .

رحم الله الإبراهيمي واجزل ثوابه ،  
ولله عاقبة الامور ، وهو وحده الذي  
يجزي عباده الأبرار ، في دار القرار .